اليهود مسخ الخنازير والقرود

□ اليهود مسخ الخنازير والقرود □

قال تعالى : ﴿ **وإذ قال موسىٰ لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين** ﴾ [الصف : ٥] .

قال سيد قطب :

وإيذاء بني إسرائيل لموسىٰ– وهو منقذهم من فرعون وملئه ، ورسولهم وقائدهم ومعلمهم – إيذاء متطاول متعدد الألوان ، وجهاده في تقويم اعوجاجهم جهاد مُضْنٍ عسير شاق .

كانوا يتسخطون علىٰ موسىٰ وهو يحاول مع فرعون إنقاذهم ، ويتعرض لبطشه وجبروته وهم آمنون بذلتهم له ! فكانوا يقولون له لائمين متبرمين : ﴿ **أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ماجئتنا** ﴾ [الأعراف : ١٢٩] كأنهم لا يرون في رسالته خيرًا ، أو كأنما يحملونه تبعة هذا الأذىٰ الأخير . وما كاد ينقذهم من ذل فرعون ، باسم الله الواحد الذي أنقذهم من فرعون ، وأغرقه ، وهم ينظرون ، حتىٰ مالوا إلىٰ عبادة فرعون وقومه .. ﴿ **فأتوا علىٰ قوم يعكفون علىٰ أصنام لهم قالوا يا موسىٰ اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة** ﴾ [الأعراف : ١٣٨] وما كاد يذهب لميقات ربه علىٰ الجبل ليتلقىٰ الألواح، حتىٰ أضلهم السامري ﴿**فأخرج لهم عجلًا جسدًا له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسىٰ فنسي** ﴾ [طه : ٨٨] .

ثم جعلوا يتسخطون علىٰ طعامهم في الصحراء : المن والسلوىٰ ، فقالوا : ﴿ **يا موسىٰ لن نصبر علىٰ طعامٍ واحدٍ فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها** ﴾ [البقرة : ٦١] .

وفي حادث البقرة التي كلفوا ذبحها ، ظلوا يماحكون ويتعللون ويسيئون الأدب مع نبيهم وربهم وهم يقولون: ﴿**ادع لنا ربك يبين لنا ما هي**﴾ [البقرة : ٦٨] .. ﴿ **ادع لنا ربك يبين لنا مالونها** ﴾ [البقرة : ٦٩] . ﴿ **ادع لنا ربك يبين لنا ما هي إن البقر تشابه علينا** ﴾ [البقرة:٧٠]. ﴿**فذبحوها وما كادوا يفعلون** ﴾ [البقرة : ٧١] .

ثم طلبوا يوم عطلة مقدسًا ، فلما كتب عليهم السبت اعتدوا فيه .

وأمام الأرض المقدسة - التي بشرهم الله بدخولها - وقفوا متخاذلين يصعرون خدهم في الوقت ذاته لموسىٰ ﴿ **قالوا يا موسىٰ إن فيها قومًا جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون** ﴾ [المائدة : ٢٢] فلما كرر عليهم التحضيض والتشجيع تبجحوا وكفروا ﴿ **قالوا يا موسىٰ إنا لن ندخلها أبدًا ماداموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون** ﴾ [المائدة : ٢٤] .

ذلك إلى إعنات موسىٰ بالأسئلة ، والاقتراحات ، والعصيان ، والتمرد ، والاتهام الشخصي بالباطل ، كما جاء في بعض الأحاديث .

وتذكر الآية هنا قول موسىٰ لهم في عتاب ومودة : ﴿ **يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم** ﴾ ؟! وهم كانوا يعلمون عن يقين .. إنما هي لهجة العتاب والتذكير .

وكانت النهاية أنهم زاغوا بعد مابذلت لهم كل أسباب الاستقامة ، فزادهم الله زيغًا ، وأزاغ قلوبهم ، فلم تعد صالحة للهدىٰ . وضلوا فكتب الله عليهم الضلال أبدًا ﴿ **والله لا يهدي القوم الفاسقين** ﴾ [التوبة : ٨٠] وبهذا انتهت قوامتهم علىٰ دين الله ، فلم يعودوا يصلحون لهذا الأمر ، وهم علىٰ هذا الزيغ والضلال(١) .

قال القشيري :

لما زاغوا بترك الحدّ أزاغ الله قلوبهم بنقض العهد .

ويقال : لما زاغوا عن طريق الرشد أزاغ الله قلوبهم بالصدِّ والردِّ والبعد عن الوُدِّ .

ويقال : لما زاغوا بظواهرهم أزاغ الله سرائرهم .

---

(١) الظلال (٦ / ٣٥٥٥ - ٣٥٥٦) .

ويقال : لما زاغوا عن خدمة الباب أزاغ الله قلوبهم عن التشوق إلى البساط .

ويقال : لما زاغوا عن العبادة أزاغ الله قلوبهم عن الإرادة(١) .

قال تعالى : ﴿ **يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياي فارهبون** ﴾ [البقرة : ٤٠] .

قال الرازي :

﴿ **وأوفوا بعهدي** ﴾ قال الحسن : المراد منه العهد الذي أخذه الله تعالى على بني إسرائيل في قوله تعالى : ﴿ **وبعثنا منهم اثني عشر نقيبًا . وقال الله إني معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة ...** ﴾ الآية ، [المائدة : ١٢] فمن وفى لله بعهده ، وفى الله له بعهده(٢).

قال ابن جرير :

عن ابن عباس ﴿ **وأوفوا بعهدي** ﴾ الذي أخذت في أعناقكم للنبي – ﷺ – إذا جاءكم ﴿ **أوف بعهدكم** ﴾ أي : أُنْجِزْ لكم ما وعدتكم عليه بتصديقه واتباعه ، بوضع ما كان عليكم من الإصر والأغلال التي كانت في أعناقكم ؛ بذنوبكم التي كانت من أحداثكم . وعن أبي العالية ﴿ **أوفوا بعهدي** ﴾ قال : عهده إلى عباده دين الإسلام ، أن يتبعوه ﴿ **أوف بعهدكم** ﴾ يعني : الجنة(٣) .

قال ابن كثير :

وقال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿**أوف بعهدكم**﴾ أرْضَ عنكم وأدخلكم الجنة(٤) .

قال القرطبي :

وقيل : أوفوا بعهدي في أداء الفرائض على السنة والإخلاص ، أوف بقبولها منكم ومجازاتكم عليها . وقال بعضهم : أوفوا بعهدي في العبادات أوف بعهدكم ، أي : أوصلكم إلى منازل الرعايات ، أوفوا بعهدي في حفظ أدب الظواهر ، أوف بعهدكم بتزيين سرائركم .

---

(١) لطائف الإشارات (٦ / ١٤٤) .
(٢) مفاتيح الغيب (٢ / ٥٠) .
(٣) تفسير الطبري (١ / ٢٥٠) .
(٤) تفسير ابن كثير (١ / ١١٨) .

وقيل : هو عام في جميع أوامره ونواهيه ووصاياه ، فيدخل في ذلك ذكر محمد ﷺ الذي في التوراة وغيره ، هذا قول الجمهور من العلماء وهو الصحيح ، وعهده - سبحانه وتعالى - وهو أن يدخلهم الجنة[١] .

يقول سيد قطب :

يبدأ هذا الدرس بنداء علوي جليل إلى بني إسرائيل ، يذكرهم بنعمته - تعالى - عليهم ، ويدعوهم إلى الوفاء بعهدهم معه ليوفي بعهده معهم[٢] .

يقول القشيري :

عهدُه - سبحانه - حفظ المعرفة ، وعهدنا اتصال المغفرة . عهده حفظ محابه ، وعهدنا لطف ثوابه . عهده حضور الباب ، وعهدنا جزيل المآب . أوفوا بعهدي بحفظ السر ، أوف بعهدكم بجميل البر ، أوفوا بعهدي الذي قبلتم يوم الميثاق ، أوف بعهدكم الذي ضمنت لكم يوم التلاق . أوفوا بعهدي في ألا تؤثروا عليّ غيري ؛ أوف بعهدكم في ألا أمنع عنكم لطفي وخيري . أوفوا بعهدي برعاية ما أثبتُّ فيكم من الودائع ؛ أوف بعهدكم بما أديم لكم من شوارق اللوامع وزواهر الطوالع . أوفوا بعهدي بحفظ أسراري ؛ أوف بعهدكم بجميل مباري . أوفوا بعهدي باستدامة عرفاني ؛ أوف بعهدكم في إدامة إحساني . أوفوا بعهدي في القيام بخدمتي ؛ أوف بعهدكم في المنة عليكم بقبولها منكم . أوفوا بعهدي في القيام بحسن المجاهدة والمعاملة ؛ أوف بعهدكم بدوام المواصلة والمشاهدة . أوفوا بعهدي بالتبري عن الحوْل والمنَّة ؛ أوف بعهدكم بالإكرام بالطول والمِنَّة . أوفوا بعهدي بالتفضل والتوكل ؛ أوف بعهدكم بالكفاية والتفضل . أوفوا بعهدي بصدق المحبة ؛ أوف بعهدكم بكمال القربة . أوفوا بعهدي اكتفوا مني بي ؛ أوف بعهدكم أرضى بكم عنكم . أوفوا بعهدي المطالبات بترك الشهوات ؛ أوف بعهدكم بكفايتكم تلك المطالبات . أوفوا بعهدي بأن تقولوا أبدًا: ربي ربي ؛ أوف بعهدكم بأن أقول لكم: عبدي عبدي[٣].

---

(١) تفسير القرطبي (١ / ٢٨٢) .
(٢) الظلال (١ / ٦٤) .
(٣) لطائف الإشارات (١ / ٨٤) .

قال تعالى: ﴿**فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية...**﴾ الآية [المائدة : ١٣] .

قال ابن كثير :

لما نقضوا عهوده ومواثيقه أعقبهم ذلك لعنًا منه لهم ، وطردًا عن بابه وجنابه ، وحجابًا لقلوبهم عن الوصول إلى الهدى ودين الحق ؛ وهو العلم النافع والعمل الصالح(١) .

قال تعالى : ﴿ **قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي قال إنه يقول إنها بقرة لا فارض ...** ﴾ إلى قوله : ﴿ **وما كادوا يفعلون** ﴾ [البقرة : ٦٨ - ٧١] .

قال ابن كثير :

أخبر تعالى عن تعنت بني إسرائيل ، وكثرة سؤالهم لرسولهم . ولهذا لما ضيقوا على أنفسهم ضُيق عليهم ، ولو أنهم ذبحوا أيَّ بقرة كانت لوقعت الموقع عنهم ، كما قال ابن عباس وعبيدة وغير واحد ، ولكنهم شددوا فشدد عليهم(٢) .

قال تعالى : ﴿ **بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغيًا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباءوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين** ﴾ [البقرة :٩٠] .

قال ابن كثير :

قوله : ﴿**وللكافرين عذاب مهين**﴾ لما كان كفرهم سببه البغي والحسد ، ومنشأ ذلك التكبر ، قوبلوا بالإهانة والصغار في الدنيا والآخرة ، كما قال تعالى : ﴿ **إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين** ﴾(٣) [غافر :٦٠] .

قال تعالى : ﴿ **وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله**

---

(١) تفسير ابن كثير : (٣ / ٦٠) . (٢) ابن كثير (١ / ١٥٧ - ١٥٨) .
(٣) ابن كثير (١ / ١٧٩) .

ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾ [البقرة : ٦١].

قال ابن كثير :

ولهذا لما ارتكب بنو إسرائيل ما ارتكبوه ، من الكفر بآيات الله وقتل أنبيائهم ، أحل الله بهم بأسه الذي لا يرد ، وكساهم ذلًا في الدنيا موصولًا بذل الآخرة ؛ جزاءً وفاقًا(١) .

قال تعالى : ﴿ **وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء** ﴾ [المائدة : ٦٤] .

قال ابن كثير :

يخبر تعالى عن اليهود - عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة - بأنهم وصفوا الله ، عز وجل وتعالى عن قولهم علوًا كبيرًا ؛ بأنه بخيل ، كما وصفوه بأنه فقير وهم أغنياء ، وعبروا عن البخل بقولهم : ﴿ **يد الله مغلولة** ﴾ .

وقد رد الله عز وجل عليهم ما قالوه ، وقابلهم فيما اختلقوه وافتروه وائتفكوه ، فقال : ﴿ **غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا** ﴾ وهكذا وقع لهم . فإن عندهم من البخل والحسد والجبن والذلة أمر عظيم ، قال تعالى : ﴿ **ضربت عليهم الذلة ...** ﴾ الآية(٢) .

قال سيد قطب :

﴿ **وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء** ﴾ . وذلك من سوء تصور يهود لله سبحانه ، فقد حكى القرآن الكريم عن كثير من سوء تصورهم ذاك ، وقد قالوا: ﴿**إن الله فقير ونحن أغنياء**﴾ عندما سئلوا النفقة ! وقالوا : ﴿ **يد الله مغلولة** ﴾ يعللون بذلك بخلهم ، فالله - بزعمهم - لا يعطي الناس ولا يعطيهم إلا القليل فكيف ينفقون ؟.

---

(١) تفسير ابن كثير (١٤٦/١) . (٢) تفسير ابن كثير (١٣٧/٣-١٣٨) .

وقد بلغ من غلظ حسهم ، وجلافة قلوبهم ، ألا يعبروا عن المعنى الفاسد الكاذب الذي أرادوه ، وهو البخل بلفظه المباشر ، فاختاروا لفظًا أشد وقاحة وتهجمًا وكفرًا ، فقالوا : ﴿ **يد الله مغلولة** ﴾ .

ويجيء الرد عليهم بإحْقاق هذه الصفة عليهم ، ولعنهم وطردهم من رحمة الله ، جزاءً على قولهم : ﴿ **غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا** ﴾ وكذلك كانوا ، فهم أبخل خلق الله بمال .

ثم يصحح هذا التصور الفاسد السقيم ، ويصف الله سبحانه بوصفه الكريم ، وهو يفيض على عباده من فضله بلا حساب . ﴿ **بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء** ﴾(١) .

قال تعالى : ﴿ **ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين فجعلناها نكالًا لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين** ﴾ [البقرة : ٦٥ - ٦٦] .

قال ابن كثير :

يقول تعالى : ﴿ **ولقد علمتم** ﴾ يا معشر اليهود ، ما حل من البأس بأهل القرية التي عصت أمر الله ، وخالفوا عهده وميثاقه فيما أخذه عليهم من تعظيم السبت والقيام بأمره ، إذ كان مشروعًا لهم ، فتحيلوا على اصطياد الحيتان في يوم السبت ، بما وضعوه لها من الشّصوص والحبائل والبرك قبل يوم السبت ، فلما جاءت يوم السبت على عادتها في الكثرة نشبت بتلك الحبائل والحيل ، فلم تخلص منها يومها ذلك ، فلما كان الليل أخذوها بعد انقضاء السبت ، فلما فعلوا ذلك مسخهم الله إلى صورة قردة ، وهي أشبه بالأناسي في الشكل الظاهر وليست بإنسان حقيقة ، فكذلك أعمال هؤلاء وحيلهم ، لما كانت مشابهة للحق في الظاهر ومخالفة له في الباطن ، كان جزاؤهم من جنس عملهم(٢) .

---

(١) الظلال (٢ / ٩٢٩) .
(٢) تفسير ابن كثير (١ / ١٥٠) .

هؤلاء قوم احتالوا على انتهاك محارم الله بما تعاطوا من الأسباب الظاهرة التي معناها في الباطن تعاطي الحرام .

عن أبي هريرة ، رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ ، قال : « لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود ، فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل »(١) .

قال تعالى : ﴿ **وسئلهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر** ﴾ إلى قوله : ﴿ **فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين** ﴾ [الأعراف : ١٦٣ - ١٦٦] .

قال ابن كثير :

قال تعالى : ﴿ **فلما نسوا ما ذكروا به** ﴾ أي : فلما أبى الفاعلون المنكر قبول النصيحة ، ﴿ **أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا**﴾ أي : ارتكبوا المعصية ﴿ **بعذاب بئيسٍ** ﴾ فنصّ على نجاة الناهين وهلاك الظالمين ، وسكت عن الساكتين ؛ لأن الجزاء من جنس العمل ، فهم لا يستحقون مدحًا فَيُمْدَحُوا ، ولا ارتكبوا إثمًا عظيمًا فَيُذَمُّوا ، ومع هذا فقد اختلف الأئمة فيهم(٢) .

قال تعالى : ﴿ **يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا** ﴾ إلى قوله : ﴿ **فلا تأس على القوم الفاسقين** ﴾ [المائدة : ٢١- ٢٦].

قال ابن كثير :

ثم قال تعالى مخبرًا عن تحريض موسى عليه السلام لبني إسرائيل على الجهاد ، ودخول بيت المقدس ؛ الذي كان في زمان أبيهم يعقوب ، لما ارتحل هو وبنوه

---

(١) قال ابن كثير (٣ / ٤٩٢) : وهذا إسناد جيد ، فإن أحمد بن محمد بن مسلم هذا ذكره الخطيب في تاريخه ووثقه ، وباقي رجاله مشهورون ثقات ، ويصحح الترمذي بمثل هذا الإسناد كثيرًا .

(٢) تفسير ابن كثير (٣ / ٤٩٣) .

وأهله إلى أرض مصر أيام يوسف عليه السلام ثم لم يزالوا بها حتى خرجوا مع موسى فوجدوا فيها قومًا من العمالقة ، فأمرهم رسول الله موسى – عليه السلام – بالدخول إليها ، وبقتال أعدائهم وبشرهم بالنصرة والظفر عليهم ، فنكلوا وعصوا وخالفوا أمره ، فعوقبوا بالذهاب في التّيه ، والتمادي في سيرهم حائرين ، لا يدرون كيف يتوجهون فيه إلى مقصد ، مدة أربعين سنة ، عقوبة لهم على تفريطهم في أمر الله .

وقوله تعالى : ﴿**فلا تأس على القوم الفاسقين**﴾ تسلية لموسى عليه السلام– عنهم ، أي لا تتأسف ولا تحزن عليهم ، فمهما حكمت عليهم به فإنهم يستحقون ذلك.

وهذه القصة تضمنت تقريع اليهود وبيان فضائحهم ، ومخالفتهم لله ورسوله ، ونكولهم عن طاعتهما فيما أمرهم به من الجهاد ، فضعفت أنفسهم عن مصابرة الأعداء ومجالدتهم ، ومقاتلتهم مع أن بين أظهرهم رسول الله ﷺ ، وكليمه وصفيّه من خلقه في هذا الزمان ، وهو يعدهم بالنصر والظفر بأعدائهم ، هذا وقد شاهدوا ما أحل الله بعدوهم فرعون من العذاب والنكال ، والغرق له ولجنوده في اليم ، وهم ينظرون لتقر به أعينهم ، وما بالعهد من قدم ، ثم ينكلون عن مقاتلة أهل بلد هي بالنسبة إلى ديار مصر لا توازي عشر المعشار في عدة أهلها وعددهم ، فظهرت قبائح صنيعهم للخاص والعام ، وافتضحوا فضيحة لا يغطيها الليل ، ولا يسترها الذيل ، هذا وهم في جهلهم يعمهون ، وفي غيهم يترددون ، وهم البغضاء إلى الله وأعداؤه . ويقولون مع ذلك : ﴿ **نحن أبناء الله وأحباؤه** ﴾ [المائدة : ١٨] فقبح الله وجوههم التي مسخ منها الخنازير والقرود ، وألزمهم لعنة تصحبهم إلى النار ذات الوقود ، ويقضي لهم فيها بتأبيد الخلود وقد فعل ، وله الحمد من جميع الوجود[١] .

لمّا قالوا : ﴿ **إنا لن ندخلها** ﴾ ونكصوا حرموا من دخولها أربعين سنة والجزاء من جنس العمل .

---

(١) تفسير ابن كثير (٣ / ٦٩ – ٧٥) .

○ قـــارون ○

هذه قصة البطر والاستعلاء في الأرض ، وترك شكر الله على النعم .

قال الله تعالى : ﴿ **إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين . قال إنما أوتيته على علم عندي أولم يعلم أن الله قد أهلك مِنْ قبله مِنَ القرون مَنْ هو أشد منه قوة وأكثر جمعًا ولا يُسئل عن ذنوبهم المجرمون** ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ **والعاقبة للمتقين** ﴾ [القصص : ٧٦ - ٨٣] .

قال ابن حجر : روى ابن أبي حاتم ، بإسناد صحيح ، عن ابن عباس : أنه كان ابن عم موسى عليه السلام. قال : وكذا قال قتادة ، وإبراهيم النخعي ، وعبد الله بن الحارث ، وسماك بن حرب ، واختلف في تفسير بغي قارون فقيل : الحسد؛ لأنه قال: ذهب موسى وهارون بالأمر فلم يبق لي شيء ، وقيل : إنه واطأ امرأة من البغايا أن تقذف موسى بنفسها فألهمها الله أن اعترفت بأنه هو الذي حملها على ذلك ، وقيل : الكبر لأنه طغى بكثرة ماله ، وقيل : هو أول من أطال ثيابه حتى زادت على قامته شبرًا .

عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : ﴿ **ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة** ﴾ تثقل .

﴿ **العصبة أولي القوة** ﴾ : لا يرفعها العصبة من الرجال ، واختلف في العصبة فقيل : عشرة ، وقيل : خمسة عشر ، وقيل : أربعون ، وقيل : من عشرة إلى أربعين .

وكان من قصة قارون أنه حصّل أموالًا عظيمة جدًا حتى قيل : كانت مفاتيح خزائنه من جلود تحمل على أربعين بغلًا .

أخرج ابن أبي حاتم بإسناد صحيح عن ابن عباس قال : كان موسى يقول لبني إسرائيل : إن الله يأمركم بكذا ، حتى دخل عليهم في أموالهم ، فشق ذلك على قارون ، فقال لبني إسرائيل : إن موسى يقول : من زنى رجم ، فتعالوا نجعل لبغي شيئًا حتى تقول : إن موسى فعل بها ، فيرجم فنستريح منه ، ففعلوا ذلك ، فلما خطبهم موسى قالوا له : وإن كنت أنت ؟ قال : وإنْ كنتُ أنا . فقالوا : فقد زنيت ، فجزع ، فأرسلوا إلى المرأة فلما جاءت عظم عليها موسى ، وسألها بالذي فلق البحر لبني إسرائيل إلّا صدقت ، فأقرت بالحق ، فخر موسى ساجدًا يبكي ، فأوحى الله إليه : إني أمرت الأرض أن تطيعك فأْمرها بما شئت ، فأَمرها ، فخسفت بقارون ومن معه .

وكان يسكن تنيس ، فحكي أن عبد العزيز الحروري ظفر ببعض كنوز قارون – وهو أمير تنيس – فلما مات تأمر ابنه علي مكانه وتورع ابنه الحسن بن عبد العُزيز عن ذلك ، فيقال : إن عليا كتب إلى أخيه الحسن : إني استطييت لك من مال أبيك مائة ألف دينار فخذها فقال : أنا تركت الكثير من ماله ؛ لأنه لم يطب لي ، فكيف آخذ هذا القليل[(١)]؟! .

قال ابن كثير : خسف به إلى الأرض السابعة . قال قتادة : كان يسمى النور لحسن صوته بالتوراة[(٢)] .

وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿**فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين**﴾ ما أغنى عنه ماله وما جمعه ، ولا خدمه وحشمه ، ولا دفعوا عنه نقمة الله وعذابه ونكاله ، ولا كان هو في نفسه منتصرًا لنفسه ، فلا ناصر له من نفسه ولا غيره[(٣)] .

يقول سيد قطب رحمه الله :

---

(١) فتح الباري (٦ / ٥١٦ – ٥١٧) .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير (٢٨٨/١) .

(٣) تفسير ابن كثير (٢٦٧/٦) .

في كل زمان ومكان تستهوي زينة الأرض بعض القلوب فتطير لها قلوب ، وتتهاوى لها نفوس ، وتتشهاها أفئدة وتبهر الذين يريدون الحياة الدنيا ولا يتطلعون إلى ما هو أعلى وأكرم منها ، فلا يسألون بأي ثمن اشترى صاحب الزينة زينته ، ولا بأي الوسائل نال ما نال من عرض الحياة ، من مال ، أو منصب ، أو جاه ، ومن ثم تتهافت نفوسهم وتتهاوى .

فأما المتصلون بالله فلهم ميزان آخر يقيم الحياة ، وفي نفوسهم قيم أخرى غير قيم المال والزينة والمتاع ، وهم أعلى نفسًا وأكبر قلبًا من أن يتهاووا أو يتصاغروا أمام قيم الأرض جميعًا ، ولهم من استعلائهم بالله عاصم من التخاذل أمام جاه العباد ، وهؤلاء هم الذين أوتوا العلم ؛ العلم الصحيح الذي يقوِّمون به الحياة حق التقويم[1].

﴿ **تلك الدار الآخرة** ﴾ : الدار الآخرة العالية الرتبة ، البعيدة الآفاق ، للذين لا يريدون علوًا ، فلا يقوم في نفوسهم خاطر استعلاء بأنفسهم لأنفسهم ، ولا يهجس في قلوبهم الاعتزاز بذواتهم ، إنما يتوارى شعورهم بأنفسهم ليملأها الشعور بالله ، أولئك الذين لا يقيمون لهذه الدنيا وأشيائها وأعراضها وقيمها وموازينها حسابًا ، ولا يبغون فيها كذلك فسادًا .

قال أبو معاوية : الذي لا يريد علوًا هو من لم يجزع من ذلها ولا ينافس في عزها ، وأرفعهم عند الله أشدهم تواضعًا ، وأعزهم غدًا ألزمهم لذل اليوم[2].

فانظر كيف كان جزاؤه من جنس عمله :

لما طغى بماله وكنوزه ، والكنز : هو المخبوء المدخر من المال ، ذهبت به الأرض . فهنا استكبار لئيم ، وبطر ذميم لمغرور مطموس .

فهوى في بطن الأرض التي علا فيها واستطال فوقها جزاءً وفاقًا ، وذهب ضعيفًا عاجزًا ، لا ينصره أحد ، ولا ينتصر بجاه أو مال . ليعلم أنه هو وأمثاله من المجرمين أهون على الله حتى من أن يسألهم عن ذنوبهم فليسوا هم الحكم

---

(١) في ظلال القرآن (٥ / ٢٧١٣) .
(٢) القرطبي (٧ / ٥٠٣٦) .

ولا الأشهاد ، ﴿ **ولا يُسأل عن ذنوبهم المجرمون** ﴾ [القصص : ٧٨] .

لطيفة :

كان قارون غاية في فقهه وفهمه ، وكان في النسب إلى موسى ابن عمه ، فلما فاضت الدنيا عليه ، فاضت نفس علمه ، كانت مقاليد خزاين خزاياه وقر ستين بغلًا ، غير أن الذي فاته أعلى وأغلى ، ملك الكثير وبالقليل ولم يسمح ، نبه فلم يَزُل نومه ، وليم فلا ينفع لومه . سحب ذيل ﴿ **فبغى** ﴾ فقام قومه قومة زجر ﴿**لا تفرح**﴾ وألقوا إليه نصائح : ﴿**وابتغ**﴾، ﴿**ولا تنس**﴾، ﴿**وأحسن**﴾، ﴿ **ولا تبغ** ﴾ ، فركب يومًا في وقت اقتداره في أربعة آلاف مقاتل ، وسم الهوى يعمل في المقَاتِل ، وركب معه في معمعته ثلثمائة جارية ، وقد أنساه سفه الأمل أن سفينة الأمل جارية . فلما غلا وعلا ، حُط إلى حضيض ﴿ **فخسفنا به** ﴾ فقال الجاهلون : إنما بادر موسى بادرته لأخذ بدرة[١] بداره ، فقال حاكم الغيب لإزالة الريب: ﴿**وبداره**﴾ . فقال مُوسى : يا أرض خذيه فاستخذت[٢] لأمره ، فسرت بسريره ، فناشده قارون بالرحم فما رُحم ، فأخذته لتقدمه حتى غيبت قدمه ، فما زال يردد القول حتى ذهب الغبي الغني .

إن الدنيا إذا طلعت على الطغام تطغى ، وإذا بغى نكاحها على العفاف تبغي ، ثم إنها تقصد هلك محبها وتبغي ، أما سحبت قرون قارون ، مع أقرانه إلى القران في قرن[٣]؟!

فأين من جمع الأموال وتموّلها ، وطاف البلاد وجوّلها ؟ وشق أنهار الأرض وحولها رأت والله كل عاملة عملها ، ونزلت بعد سفرها منزلها .

أين قارون ؟ وقد هلكت في الزمان جَديسه وطُسَمه ، ولقد ذهب من كان وكان اسمه ، فلا عينه تُرى ولا رسمه ، ولا جوهره يُحس ولا جسمه ، تبدد والله بالممات نظمه ، ولحق بالرفات عظمه .

كم طوّفوا بالبلاد وجوّلوا ، كم أوعدوا وهولوا ، كم جمعوا وتخولوا ، كم

---

(١) نقود . (٢) استرخت . (٣) المدهش ابن الجوزي (١٠٣ - ١٠٤) .

اقتنوا وتمولوا ، كم تطاولوا وما تطولوا ، فانظر الآن : أي غول تغولوا ، وأقاموا ، فما قيل : فازوا ، ولكن تحولوا .

أطاعوا ذا الخداع وصدقـوه وكم نصح النصيح فكذبـوه
ولم يرضوا بما سكنوا مشيدًا إلـى أن فضّضوه وذهّبـوه
أظلـوا بالقبيـح فتابعـوه ولـو أُمـروا بـه لتجنبـوه
نهاهم عن طلاب المال زهد ونادى الحرص ويلكم اطلبوه
فألقاهـا إلـى أسمـاع غثـرٍ[1] إذا عُـرف الطريـق تنكبـوه
حسبتم يا بني حـوّا شقـاء نجاؤكم الذي لـم تحسبـوه
أُديـن الشر منكـم فاحـذروه ومات الخير فيكـم فاندبـوه

○ الســامري ○

وانظر إلى بلاهة الفكر ، وبلادة الروح ، وتفاهة بني إسرائيل في قصة السامري.

قال تعالى : ﴿ **واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلًا جسدًا له خوار ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلًا اتخذوه وكانوا ظالمين**﴾ [الأعراف : ١٤٨] .

وقال تعالى : ﴿ **وما أعجلك عن قومك يا موسى قال هم أولاء على أثري وعجلت إليك رب لترضى . قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامري فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفًا قال ياقوم ألم يعدكم ربكم وعدًا حسنًا أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدي قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا ولكنا حُمِّلْنا أوزارًا من زينة القوم فقذفناها فكذلك ألقى السامري فأخرج لهم عجلًا جسدًا له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسي أفلا يرون ألَّا يرجعُ إليهم قَولًا ولا يملك لهم ضرًّا ولا نفعًا ولقد قال لهم هارون من قبل يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري . قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى**

---

(١) سفلة الناس .

قال يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألّا تتبعن أفعصيت أمري قال يا بنؤمَّ لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي قال فما خطبك يا سامري قال بصرت بما لم يبصروا به. فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لي نفسي. قال فاذهب فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس وإن لك موعدًا لن تُخلفه وانظر إلى إلهك الذي ظلت عليه عاكفًا لنحرّقنه ثم لننسفنه في اليم نسفًا ﴾ [طه : ٨٣ – ٩٧].

حين ذهب موسى لميقات ربه ، عمد رجل منهم يقال له السامري فأخذ ما كان استعاره من الحلي فصاغ منه عجلًا ، وألقى فيه قبضة من التراب كان أخذه من فرس جبريل ، حين رآه يوم أغرق الله فرعون على يديه ، فلما ألقاها فيه خار كما يخور العجل الحقيقي ، ويقال : إنه استحال عجلًا جسدًا ، أي : لحمًا ودمًا حيًا يخور، قال قتادة وغيره: وقيل: بل كانت الريح إذا دخلت من دبره خرجت من فمه، فيخور كما تخور البقرة، فيرقصون حوله ويفرحون ﴿**فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسي**﴾ أي: فنسي موسى ربه عندنا وذهب يتطلبه وهو هاهنا، تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا، وتقدست أسماؤه وصفاته، وتضاعفت آلاؤه وعداته.

وأقبل عليهم موسى فعنفهم ووبخهم وهجنهم في صنيعهم هذا القبيح ، فاعتذروا إليه بما ليس بصحيح ﴿ **قالوا إنا حملنا أوزارًا من زينة القوم فقذفناها فكذلك ألقى السامري** ﴾ تحرجوا من تملك حُلي آل فرعون ، وهم أهل حرب ، وقد أمرهم الله بأخذه وأباحه لهم ، ولم يتحرجوا – بجهلهم وقلة علمهم وعقلهم – من عبادة العجل الجسد ؛ الذي له خوار ، مع الواحد ، الأحد ، الفرد، الصمد، القهار. وأقبل موسى على السامري ﴿ **قال فما خطبك يا سامري** ﴾ ما حملك على ما صنعت ؟ ﴿ **قال بصرت بما لم يبصروا به** ﴾ أي رأيت جبرائيل وهو راكب فرسًا ﴿ **فقبضت قبضة من أثر الرسول** ﴾ أي من أثر فرس جبريل ، فأخذ من أثر حافرها ، فلما ألقاه في هذا العجل المصنوع من الذهب كان من أمره ما كان، ولهذا قال: ﴿**فاذهب فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس**﴾[١].

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير (١ / ٢٦٨ – ٢٦٩) .

قال ابن كثير :

هذا دعاء عليه أن لا يمس أحدًا ؛ معاقبة له على مسه ما لم يكن له مسه[(١)].

قال القرطبي: « قال الحسن : جعل الله عقوبة السامري ألا يماس الناس ، ولا يماسوه ؛ عقوبة له ، ولما كان منه إلى يوم القيامة »[(٢)] .. لا أَمِسُّ ولا أُمَسُّ .

تميم كرهط السامري وقوله ألا لا يريد السامري مساسًا

قال ابن كثير : أي : كما أخذت ومسست ما لم يكن لك أخذه ومسه من أثر الرسول ، فعقوبتك في الدنيا أن تقول ﴿ **لا مساس** ﴾ أي : لا تماس الناس ولا يماسونك[(٣)] . فمن كان يمسه تصيبه الحمى .

قال الألوسي ، مبينًا كون الجزاء من جنس العمل : إنه لما أنشأ الفتنة لما كانت ملامسته سببًا لحياة الموات ، عوقب بما يضاده ؛ حيث جعلت ملامسته سببًا للحمى التي هي من أسباب موت الأحياء ، وقيل : عوقب بذلك ليكون الجزاء من جنس العمل . نَبَذَ فَنُبِذْ ، فإن ذلك التحامي أشبه شيء بالنبذ[(٤)]. اهـ .

○ قاتلة يحيى بن زكريا ○

قال الحافظ ابن كثير : روى الحافظ ابن عساكر في « المستقصى في فضائل الأقصى » عن قاسم مولى معاوية ، قال : كان ملك هذه المدينة – يعني : دمشق – هداد بن هدار وكان قد زوج ابنه بابنة أخيه أربل ملكة صيدا ، وقد كان من جملة أملاكها سوق الملوك بدمشق وهو الصاغة العتيقة ، قال : وكان قد حلف بطلاقها ثلاثًا ثم إنه أراد مراجعتها ، فاستفتى يحيى بن زكريا فقال :

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير (١ / ٢٦٩) .

(٢) تفسير القرطبي (٦ / ٤٢٨١) .

(٣) تفسير ابن كثير (٥ / ٣٠٧) .

(٤) روح المعاني للألوسي (١٦ / ٢٥٦) .

لا تحل لك حتى تنكح زوجًا غيرك ، فحقدت عليه وسألت من الملك رأس يحيى بن زكريا ؛ وذلك بإشارة أمها ، فأبى عليها ، ثم أجابها إلى ذلك ، وبعث إليه - وهو قائم يصلي في مسجد جيرون - من أتاه برأسه في صينية ، فجعل الرأس يقول : لا تحل له ، لا تحل له حتى تنكح زوجًا غيره ، فأخذت المرأة الطبق ، وحملته على رأسها ، وأتت به أمها ، وهو يقول كذلك ، فلما تمثلت بين يدي أمها خسف بها إلى قدميها ، ثم إلى حقويها[١]، وجعلت أمها تولول ، والجواري يصرخن ويلطمن وجوههن ، ثم خسف بها إلى منكبيها ، فأمرت أمها السياف أن يضرب عنقها ؛ لتتسلى برأسها ، ففعل ، فلفظت الأرض جثتها عند ذلك، ووقعوا في الذل والفناء ، ولم يزل دم يحيى يفور حتى قدم بخت نصر فقتل عليه خمسة وسبعين ألفًا[٢].

وكان جزاؤها من جنس عملها : لما اجتزت رأس يحيى بن زكريا - عليهما السلام - اجتز رأسها ، جزاءً وفاقًا .

○ شيطان بني النضير : حيي بن أخطب ○

كان حيي بن أخطب عندما نجح في حمل بني قريظة على نقض العهد والغدر بالمسلمين ، قد تعهد لسيد بني قريظة بأن يدخل معه حصنه ؛ ليصيبه ما أصاب بني قريظة إذا ما انسحبت جيوش الأحزاب ، دون أن تستأصل شأفة المسلمين، وتقضي عليهم قضاء تامًّا، وفعلًا، فقد وفَّى له حيي بذلك، فقد أتى الله به إلى حصون بني قريظة ليجني ثمار أعماله الشريرة ، فبقي معهم داخل حصونهم حتى نهاية أمرهم .

قال ابن إسحاق ، يصف موقف حيي بن أخطب ساعة إعدامه :

وأُتي بحيي بن أخطب - عدو الله - مجموعة يداه إلى عنقه بحبل ، فلما نظر إلى رسول الله - ﷺ - قال : أما والله ما لُمتُ نفسي في عداوتك ، ولكن

---

(١) الحقو : الكِشْحُ .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير (٢ / ٥١) .

من يخذل الله يخذله الله . وزاد السهيلي في الروض الأنف : أن النبي - ﷺ - قال لحيي بن أخطب حين رآه موثقًا : ألم يمكني الله منك ؟ فقال : بلى ، ولكن من يخذلك يُخذل .

وحينما تقدم لضرب عنقه قال : يأيها الناس إنه لا بأس بأمر الله ، كتاب وقدر ، وملحمة كتبها الله على بني إسرائيل ، ثم جلس ، فضربت عنقه .

يقول جبل بن جوال الغطفاني ، أحد شعراء اليهود :

لعمرك ما لام ابن أخطب نفسه ولكنه من يخذل الله يخـذل

والجزاء من جنس العمل ..

○ أسَير بن زارم ملك خيبر ○

نصّبه اليهود ملكًا على خيبر خلفًا لأبي رافع ، وجدّ أسير لشن حملة أحزاب جديدة على المسلمين في المدينة ، وحاول أن يصنع برسول الله - ﷺ - ما لم يصنعه قادة اليهود الذين سبقوه ؛ فذهب إلى مناطق القبائل النجدية - غطفان وغيرها - وصار يتنقل بين مضارب البدو ومخيمات العشائر الوثنية ؛ يحرضها على حرب رسول الله ﷺ ويجمعها لغزو المدينة ، وأرسل رسول الله ﷺ ثلاثين من أصحابه على رأسهم عبد الله بن رواحة ، لأسير بن زارم برسالة شفوية تتضمن دعوة ملك اليهود للذهاب إلى المدينة لمقابلة النبي ﷺ بنفسه ، لينهوا حالة الحرب القائمة بين الفريقين على أن يُبقيه النبي ﷺ أميرًا على خيبر ، حيث قال له ابن رواحة : يا أُسير ، إن رسول الله ﷺ بعثنا إليك لتخرج إليه ، فيستعملك على خيبر ويحسن إليك[(١)].

وخرج أسير بن زارم في ثلاثين من خلصاء أصحابه ، بصحبة عبد الله ابن رواحة وصحبه ، وقد أردف كل رجل من أصحاب عبد الله بن رواحة رجلًا من أصحاب أسير بن زارم ، وكان سيد خيبر أُسير رديف عبد الله بن أُنيس .

وبينما كانوا سائرين في اتجاه المدينة ، حاول اليهود الغدر بالمسلمين ، فأهوى

---

(١) ابن هشام (٢/ ٦١٨) - الحلبية (٢ / ٣٠٦) .

أسير بن زارم بيده إلى سيف عبد الله بن أنيس ليقتله ، إلا أن ابن أنيس كان أسرع منه ؛ إذ فطن لذلك ، فانتزع السيف من يده وقتله ، ثم دارت معركة بين بقية الركب ، تمكن فيها المسلمون من القضاء على ابن زارم وجماعته ، ما عدا رجلًا واحدًا تمكن من الفرار .

وكان جزاؤهم من جنس عملهم ، ولا يحيق المكر السيىء إلا بأهله .

○ يهود بني قريظة ○

من لم يعتبر بغيره ؛ اعتبر به غيره .

هم قوم البهت ويا طيري ذي قولة حبر الإيمان
وصفيـة أم الابـــرار هارون وموسى عمران
برآء منهم همُ منـــا صاحوا يا حكم القرآن
يـذرون الدمع لغيبتـه ولغيبة سعد الفرســان
سعد بن معاذ تعرفـه واهتز سرير الرحمـــن

قد كان للمسلمين حلف مع بني قريظة قبل مجيء الأحزاب ، ولكنهم بعد مجيء الأحزاب غدروا بالمسلمين وقد كانوا خلفهم ، وقوّاهم على ذلك شيطان بني النضير حيي بن أخطب ، ولذلك قصة نقصها ؛ حتى ترى كيف أن جزاءهم كان من جنس عملهم ، وكيف أنهم لما أرادوا سحق المسلمين من الخلف وإبادتهم سُحقوا وأبيدوا .

ذهب شيطان خيبر - حيي بن أخطب - إلى حصن بني قريظة قائلًا : ويحك يا كعب ، افتح لي . فقال له كعب وقد تَمنع : يا حيي إنك امرؤ مشؤوم ، وإني قد عاهدت محمدًا ، فلست بناقض ما بيني وبينه ، ولم أر منه إلَّا وفاءً وصدقًا . فقال له حيي : ويحك ، افتح لي أكلمك ، فقال : ما أنا بفاعل ، فغاظ ذلك حييًّا ، فقال لكعب : والله ما أغلقت دوني إلا تخوُّفًا على حشيشتك[1] أن آكل معك منها ، فخجل منه كعب ، ففتح له .

فقال له حيي : جئتك بعز الدهر ، جئتك بقريش حتى بجمع الأسيال ،

---

(١) البُر يطحن غليظا .

وبغطفان حتى أنزلتهم بجانب أحد ، قد عاهدوني وعاقدوني : أن لا يبرحوا حتى يستأصلوا محمدًا ومن معه .

فقال له كعب : جئتني والله بذل الدهر ، وكل ما يُخْشى ، فإني لم أر في محمد إلَّا صدقًا ووفاءً ، جئتني يا حيي بجهامٍ قد هراق ماؤه ، فهو يرعد ويبرق ليس فيه شيء[1] . ثم أردف كعب قائلًا : ويحك يا حيي ، فدعني وما أنا عليه ، فإني لم أر من محمد إلَّا صدقًا ووفاء . وما زال به حيي وبقومه يفتل في الذروة والغارب حتى أجابوه إلى ما طلب ، فوافقوا على نقض العهد ، والغدر بالمسلمين والانضمام إلى جيش الأحزاب ، ولم يشذ إلا الزعيم القرظي - عمرو بن سُعدَى - وقال : والله لا أغدر بمحمد أبدًا ، وبقي على عهده وسانده في موقفه النبيل هذا ثلاثة من اليهود وهم : ثعلبة ، وأسيد - ابنا سَعْيه - وأسد بن عبيد . وأخذ كعب بن أسد الصحيفة ومزقها .

غدروا برسول الله - ﷺ - وجيوش الأحزاب توشك الفتك بالمدينة ، وبلغت القلوب الحناجر .

أوفد إليهم النبي ﷺ وفدًا من الأنصار ، على رأسه سعد بن معاذ وسعد بن عبادة ، فقالوا للوفد ، وقد تملكهم الغرور : الآن جئتم تطلبون منا الوفاء بالعهد الذي بيننا وبين محمد ، وهو الذي كسر جناحنا ، وأخرج إخواننا بني النضير ، اذهبوا لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد ، من هو رسول الله هذا ؟! فغضب سيد الخزرج وأخذ يشاتم اليهود فشاتموه ، وأغضبوه كثيرًا . غير أن سيد الأوس سعد بن معاذ - وهو حليف هؤلاء اليهود - قد دخل في الأمر وقال لسعد بن عبادة : دع عنك مشاتمتهم فما بيننا وبينهم أربى من المشاتمة ، وأقبل عليهم ناصحًا ومحذرًا : إنكم قد علمتم الذي بيننا وبينكم يا بني قريظة ، وأنا أخاف عليكم مثل يوم بني النضير أو أمر منه . فقالوا لسعد : أكلت أير أبيك ،

---

(١) يعني بذلك كعب : أن جيوش الأحزاب على كثرتها ليست إلا كالسحاب العظيم الذي تصك رعوده الآذان ، ويخطف برقه الأبصار ، وليس فيه قطرة ماء .

فقال لهم سعد ، وكان حليمًا : غير هذا من القول كان أجمل بكم وأحسن يا بني قريظة ، فتمادى بنو قريظة في غيهم ، وصاروا ينالون من النبي ﷺ ويقعون فيه ، وهنا يئس سعد بن معاذ من عودة حلفائه إلى جادة الصواب ، فعاد الوفد يحمل إلى النبي ﷺ بواسطة كلمة سر : عضل والقارة ، أن القوم قد غدروا ، دون أن يعلم أحد من المعسكر هذا الخبر المزعج .

وحين أخزى الله الأحزاب ، أتى وقت حساب بني قريظة :

وجاء جبريل إلى رسول الله ﷺ قائلًا: أَوَ قَدْ وضعت السلاح يا رسول الله؟ قال : نعم ، فقال جبريل : ما وضعت الملائكة السلاح بعد ، وما رجعت الآن إلّا من طلب القوم . إن الله يأمرك بالمسير إلى بني قريظة ، فإني عائد إليهم فمزلزلهم .

ونادى رسول الله ﷺ : من كان سامعًا مطيعًا ، فلا يصلينَّ العصر إلا في بني قريظة . وعندما بلغ عمرو بن سعدى انسحاب الأحزاب ، جاء إلى قومه بني قريظة ودعاهم إلى اجتماع عاجل ، حضره كل زعماء بني قريظة ، وبعد أن أنَّبَهُمْ ووبخهم على نقضهم العهد الذي بينهم وبين المسلمين ، ونصحهم : يا بني قريظة ، لقد رأيت عبرًا ؛ رأيت دار إخواننا خالية بعد العز والشرف والرأس الفاضل ، تركوا أموالهم قد تملكها غيرهم ، وخرجوا خروج ذل .

ثم أكد لهم كعالم من علماء التوراة ، أنه لا يعادي أحد محمدًا ﷺ إلا كان مصيره الخسران فقال : لا والتوراة ، ما سُلِّط هذا[1] على قوم قط ولله بهم حاجة ، وقد أوقع ببني قينقاع وكانوا أهل عُدَّة وسلاح ونخوة ، فلم يخرج أحد منهم رأسه حتى سباهم ، فكُلِّم فيهم فتركهم على إجلائهم من يثرب ، ثم دعا عمرو بن سُعْدى قومه إلى الدخول في الإسلام ، ليحقنوا دماءهم ، ويتبعوا الحق ، قائلًا :

يا قوم ، قد رأيتم ما رأيتم فأطيعوني وتعالوا نتبع محمدًا ، فوالله إنكم

---

(١) يعني : النبي صلى الله عليه وسلم .

لتعلمون أنه نبي ، وقد بشرنا به علماؤنا ، ثم لازال ابن سُعدى يخوِّفهم بالحرب والسبي ، وأقبل على سيدهم كعب بن أسد ، وقال له : والتوراة التي أنزلت على موسى - عليه السلام - يوم طور سيناء ، إنه العز والشرف في الدنيا(١) .
وبينما عمرو بن سعْدَى يتحدث إلى قومه في ذلك الاجتماع ، إذ بطلائع الجيش النبوي تظهر عليهم زاحفة نحو حصونهم ، وهنا قطع الزعيم اليهودي ابن سعدى حديثه قائلًا : هذا الذي قلت لكم ...

ومع هذا فقد رفض بنو قريظة نصيحة عمرو بن سعدى - الذي دعاهم إلى الدخول في الإسلام - فتقدم إليهم بمحاولة أخيرة ، باقتراح آخر ، فقال لهم : لقد خالفتم محمدًا ، ولم أشرككم في غدركم ، فإن أبيتم أن تدخلوا معه في دينه ، فاثبتوا على اليهودية ، وأعطوا الجزية ، فوالله ، ما أدري أيقبلها منكم أم لا ؟ ولكنهم رفضوا أيضًا هذا الاقتراح ؛ حيث كان جوابهم ، والغرور لمّا يزل يشحن رؤوسهم : نحن لا نقرّ للعرب بخراج في رقابنا يأخذونه ، القتل خير من ذلك .

وهنا أعلن عمرو بن سعدى مفارقته لقومه ، وخرج من حصون قومه بني قريظة ، بعد أن طوّقها الجيش الإسلامي من كل مكان ، وكان خروجه ليلًا .

وعندما خرج هذا الزعيم اليهودي من حصون قومه ، مفارقًا لهم - وكان خروجه ليلًا - التقى به رجال الحرس النبوي الذين كانوا يقومون بأعمال الدورية ، فأتوا به إلى قائدهم محمد بن مسلمة الأنصاري .

قال ابن إسحق : خرج عمرو بن سعدى القرظي ، فمر بحرس رسول الله ﷺ وعليه محمد بن مسلمة الأنصاري تلك الليلة ، فلما رآه ابن مسلمة استوقفه قائلًا : من هذا ؟ قال : أنا عمرو بن سعدى ، وكان عمرو قد أبى أن يدخل مع بني قريظة في غدرهم برسول الله ﷺ وقال : لا أغدر بمحمد أبدًا .

فقال ابن مسلمة - حين عرف أنه ابن سعدى - : اللهم لا تحرمني إقالة عثرات الكرام ، ثم خلّى سبيله ، فخرج على وجهه حتى بات - مستأمنا - في

(١) سلسلة معارك الإسلام الفاصلة لمحمد أحمد بشاميل ، والبداية والنهاية .

مسجد رسول الله ﷺ تلك الليلة بالمدينة . ثم خرج فلم يدر أين توجه من الأرض ، ولقد وصف النبي ﷺ عمرو بن سعدى بالوفاء وذلك أنه لما ذُكرت له قصة إلقاء الحرس القبض عليه ، ثم إخلاء محمد بن مسلمة سبيله ، قال : « ذلك رجل نجاه الله بوفائه » .

وفَّى لله فوفَّى الله له ، وكان جزاؤه من جنس عمله .

أما يهود بني قريظة ، فإنهم لما نظروا إلى طلائع الجيش النبوي تتقدم – بقيادة علي بن أبي طالب – فاضت نفوسهم الشريرة ببعض ما تختزنه من خبث ودناءة ووضاعة ، وأسمعوا ابن عم رسول الله ﷺ في نبي الله ﷺ ونسائه الطاهرات الطيبات من السب ، والشتم ، والقذف ، ما لم يسمح أحد من المؤرخين لنفسه أن يورد نصه ؛ لفظاعته وبشاعته . وكل الجواب الذي سمعوه من عليّ : السيف بيننا وبينكم ، وأشفق عليّ – وهو أول من سبق باللواء إلى بني قريظة – من أن يسمع الرسول ﷺ في نفسه وفي نسائه ذلك السب القبيح .

وأناب علي في حمل اللواء أبا قتادة الأنصاري ، وانطلق مسرعًا نحو رسول الله ﷺ واستوقفه عَلَى بُعد من حصون اليهود ، وطلب منه أن يقف بعيدًا عن هذه الحصون ؛ لئلا يتأذى بسماعه ما فاه به اليهود من سب وقذع . فقال علي : لا عليك يا رسول الله ، أن تدنو من هؤلاء الأخابث . فقال النبي ﷺ : لعلك سمعت منهم فيَّ أذى ؟ قال : نعم يا رسول الله . فقال ﷺ : لو رأوني لم يقولوا من ذلك شيئًا .

ثم واصل الرسول القائد ﷺ تقدمه نحو حصون اليهود حتى دنا من حصون قريظة الغادرة ، نادى نفرًا من قادتهم ، فلما ظهروا في أبراج حصونهم قال لهم : يا إخوان القردة وعبد الطاغوت ، هل أخزاكم الله ، لأنزل بكم نقمته . وهنا أسقط في أيدي اليهود ، فأنكروا أن يكونوا شتموه ونساءه وانطلقوا يحلفون كذبًا ؛ أنهم ما فاهوا بشيء مما بلغه بهذا الشأن ، ثم اندفعوا في ليونة الأفاعي يُسمعون رسول الله ﷺ من لين القول وطيب الكلام وجميل الإطراء ، ما ظنوا أنه سيساهم في تخفيف عقوبة خيانتهم العظمى ، فقالوا : يا أبا القاسم ، ما كنت جهولًا .

واشتد حصار المسلمين لليهود ، وطلبوا المفاوضة والسماح لهم بالخروج من يثرب مع نسائهم وذراريهم وما تقدر الإبل على حمله من متاع - سوى السلاح - على أن يتركوا بقية كل ما يملكون في يثرب للمسلمين ، ورفض طَلبهم .

ولقد كان المسلمون المحاصرون لليهود في حالة تعب شديد ؛ نتيجة للجهد المضني الذي بذلوه في ليالي الخندق المخيفة ، التي تحالف فيها البلاء على المسلمين ، وأحاطهم من كل جانب طيلة أكثر من خمس وعشرين ليلة ، حرموا فيها حتى من النوم ؛ لشدة الخوف ، ودوام الحراسة والمرابطة في وجه عدوهم المحاصر لهم ، والذي ما كان يترك لهم فرصة يستريحون فيها ، يضاف إلى ذلك المجاعة الشديدة ، والجو البارد النازل بالمسلمين بينما بنو قريظة يحتمون بحصونهم في مأمن من لفح البرد القارص ، موفورًا لديهم كل ما يحتاجون من الطعام لأشهر طويلة ، كما أن الماء كان موجودًا لديهم بصفة دائمة . ومع هذا انهارت أعصاب اليهود وتحطمت معنوياتهم إلى درجة لم يحتملوا معها الحصار أكثر من خمس وعشرين ليلة ، وقذف الله في قلوبهم الرعب ، وقرر الصحابة اقتحام حصون اليهود مهما كان الثمن . وصاح علي بن أبي طالب حامل لواء الجيش ، وابن عمه الزبير بن العوام ، صاح : والله لأذوقن ما ذاق حمزة ولأفتحن حصنهم .

ولما سمع اليهود هذا الإنذار من حامل لواء الجيش علي بن أبي طالب ، أيقنوا أن الهجوم على حصونهم أمر لا مفر منه ، طلبوا إيقاف الهجوم ، وأعلنوا الاستسلام والنزول على حكم الرسول ﷺ دونما قيد أو شرط .

وسارع اليهود إلى فتح أبواب معاقلهم وحصونهم فورًا ، بعد أن ألقوا سلاحهم ، وأخذوا في مغادرة الحصن مستسلمين ، وأمر النبي ﷺ باعتقال الرجال ووضع القيود في أيديهم ، وقد تم ذلك تحت إشراف محمد بن مسلمة قائد الحرس النبوي ، وقد حبس الرجال من بني قريظة وعددهم حوالي ثمانمائة مقاتل في دار أسامة بن زيد[١] ، أما النساء والأطفال فقد رأى النبي ﷺ بعد

---

(١) الكامل لابن الأثير (٢ / ١٢٧) .

أن أوكل أمرهم إلى عبد الله بن سلام ، أن يحفظوا في مكان ليس فيه صفة الحبس والتضييق وأنزلوا دار الضيافة ، وهي دار ابنة الحرث النجارية المعدة لنزول الوفود التي تقصد المدينة وكان عدد هؤلاء النساء والذراري يناهز الألف .

وشفع الأوس لحلفائهم يهود بني قريظة عند رسول الله ﷺ ففوض أمر هؤلاء اليهود إلى سيد الأوس سعد بن معاذ . قال رسول الله ﷺ : « ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم ؟ » قالوا : بلى ، قال : « فذاك سعد بن معاذ » .

روى الإمام أحمد في مسنده عن جابر بن عبد الله أنه قال : رُمي سعد بن معاذ ، فقطعوا أكحله فحسمه رسول الله ﷺ بالنار ، فانتفخت يده ، فحسمه أخرى فانتفخت يده ، فنزف فلما رأى ذلك قال : اللهم لا تخرج نفسي حتى تقر عيني من بني قريظة، فاستمسك عرقه فما قطر، حتى نزلوا على حكم سعد، فحكم أن تقتل رجالهم وتسبى نساؤهم وذراريهم فلما فرغ منهم انفتق عرقه فمات . رضي اليهود ، ونزلوا على حكم الله أولًا ، ثم على حكم سعد بن معاذ ثانيًا لما قال لهم : أترضون بحكمي ، قالوا : نعم . قال سعد : فإني أحكم فيهم أن تُقتل المقاتلة وتسبى النساء والذرية ، وأن تقسم أموالهم[1] .

فأخذهم من الغمّ ما أخذهم ، وصعق اليهود لهذا الحكم الصارم ، وعلاهم الذهول ، وخيم عليهم الوجوم .

وأمر بحفر خنادق عميقة في سوق المدينة ، وأمر رسول الله ﷺ بإحضار الرجال المحكوم عليهم وأمر بإعدامهم ، فأعدموا دفعة بعد دفعة ، حتى لم يبق منهم أحد . وكان الصحابة كلما تم إعدام دفعة من هؤلاء اليهود قذفوا في الخنادق، وواروهم بالتراب ، واختلف المؤرخون في عدد اليهود الذين تم إعدامهم ، فالبعض يقول : إنهم ما بين ستمائة إلى سبعمائة ، والبعض الآخر يقول : إنهم ما بين الثمانمائة إلى التسعمائة[2] .

---

(١) رواه البخاري .

(٢) سمط النجوم العوالي (٢ / ١٣٨) .

ولقد أعدم هؤلاء اليهود في ليلة واحدة ، وجرت عملية الإعدام على ضوء مشاعل سعف النخيل[1] وتولى عملية قتل اليهود الخونة علي بن أبي طالب والزبير بن العوام ، وكان بنو قريظة المحتجزون في السجن مع سيدهم كعب بن أسد كلما استدعى الحرس جماعة منهم لإعدامهم ، لاذوا بسيدهم كعب يسألونه في جزع وارتباك ، ما تراه يصنع بنا ؟ فيجيبهم : أفي كل موطن لا تعقلون ؟! هو والله القتل .

فكان جزاؤهم من جنس عملهم ؛ من جنس ما أرادوا للمسلمين .

وأبى الله إلّا أن يصلوا هم إلى النهاية المريبة التي أرادوا للمسلمين الوصول إليها .

﴿ ولا يحيق المكر السيىء إلا بأهله ﴾ .

وهنا أمر آخر : أن الحكم الذي أصدره سعد بن معاذ على يهود بني قريظة ، وأقره النبي ﷺ وقام بتنفيذه ، قد جاء تمامًا وفق الشريعة الموسوية عند اليهود أنفسهم كما في التوراة عندهم ، فقد نص الإصحاح العشرون من سفر التثنية « وإن تسالمك أي قرية ، بل حاربتك فحاصرها ، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورهم بحد السيف ، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة كل غنيمتها فتغتنمها لنفسك ، وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك[2] .

وهذا النص الصريح في كتاب اليهود المقدس ، يجعل هؤلاء اليهود يرون أن من حقهم تنفيذ حكم الإعدام فيمن وقع في أيديهم من أعدائهم الرجال وسبي نسائهم وذراريهم ، ومصادرة كل ممتلكاتهم . وهذا يعني أن اليهود لو نجحوا في مؤامرتهم ، وتم لهم ولأحلافهم التغلب على المسلمين لما ترددوا لحظة في إبادة المحاربين منهم وسبي نسائهم وذراريهم ومصادرة أموالهم تمشيًا مع حكم كتابهم المقدس الذي جاء صريحًا في سفر التثنية .

وهكذا جاءت العقوبة التي أنزلها المسلمون باليهود هي نفس العقوبة التي كان هؤلاء اليهود ينوون إنزالها بالمسلمين لو وقعوا في أيديهم .

---

(١) السيرة الحلبية (٢ / ١٢٠) .

(٢) سفر التثنية (٢٠ / ١٣ - ١٤) .

فالحكم النازل باليهود إنما جاء وفقًا لشريعتهم ؛ فهو إذًا جزاءً وفاقًا[١] وهكذا كان جزاء يهود بني قريظة من جنس عملهم .

○ كعب بن الأشرف لعنه الله ○

روى البخاري عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : مَنْ لكعب بن الأشرف فإنه قد آذى الله ورسوله ، فقام محمد بن مسلمة فقال : يا رسول الله ، أتحب أن أقتله ؟ قال : نعم . قال:فأذن لي أن أقول شيئًا ، قال : قل ، فأتاه محمد بن مسلمة فقال : إن هذا الرجل قد سألنا صدقة وإنه قد عَنّانا ، وإني قد أتيتك أستسلفك . قال : وأيضًا ، والله لتملُّنَّه . قال : إنا قد اتبعناه فلا نحب أن ندعه حتى ننظر إلى أي شيء يصير شأنه ، وقد أردنا أن تسلفنا . قال : نعم ، أرهنوني . قلت : أي شيء تريد ؟ قال : أرهنوني نساءكم . فقالوا كيف نرهنك نساءنا وأنت أجمل العرب . قال فأرهنوني أبناءكم . قالوا : كيف نرهنك أبناءنا فيُسبُّ أحدهم فيقال : رهن بوسق[٢] أو وسقين ، هذا عار علينا ، ولكن نرهنك اللأمة ، قال سفيان : يعني السلاح . فواعده أن يأتيه ليلًا فجاءه ليلًا ومعه أبو نائلة – وهو أخو كعب من الرضاعة – فدعاهم إلى الحصن فنزل إليهم ، فقالت له امرأته : أين تخرج هذه الساعة ؟ وقال غير عمرو قالت : أسمع صوتًا كأنه يقطر منه الدم . قال : إنما هو أخي محمد بن مسلمة ورضيعي أبو نائلة . إن الكريم لو دُعي إلى طعنة بليل لأجاب . قال : ويدخل محمد بن مسلمة ومعه رجلان فقال : إذا ما جاء فإني مائل بشعره فأشمه ، فإذا رأيتموني استمكنت من رأسه فدونكم فاضربوه . وقال مرة : ثم أشمكم ، فنزل إليهم متوشحًا وهو ينفخ منه ريح الطيب ، فقال : ما رأيت كاليوم ريحًا ، أي : أطيب . وقال غير عمرو : عندي أعطر نساء العرب وأجمل العرب . قال عمرو : أتأذن لي في أن أشم رأسك ؟ قال : نعم : فشمه ، ثم أشم أصحابه ، ثم قال : أتأذن لي ؟ قال :

---

(١) موسوعة الغزوات الكبرى – بنو قريظة (١٥٢ ، ٢٤٦ ، ١٦٤ ، ١٩٩ ، ٢٠٠) .

(٢) حمل البعير .

نعم . فلما استمكن منه قال : دونكم فقتلوه ، ثم أتوا النبي ﷺ فأخبرُوه .

قال محمد بن إسحق : كان من حديث كعب بن الأشرف - وكان رجلًا من طيىء ثم أحد بني نبهان، وأمه من بني النضير - أنه لما بلغه الخبر عن مقتل أهل بدْر حين قدم زيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة ، قال : والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم ، لبطن الأرض خير من ظهرها . فلما تيقّن عدو الله الخبر ، خرج إلى مكة ، فنزل على المطلب بن أبي وداعة السهمي ، وعنده عاتكة بنت أبي العيص بن أمية بن عبد شمس ، فأنزلته ، وأكرمته ، وجعل يحرض على قتال رسول الله ﷺ وينشد الأشعار ، ويندب من قتل من المشركين يوم بدر ، فذكر ابن إسحق قصيدته التي أولها :

طحنت رحى بدر لمهلك أهله ولمثل بدر تستهل وتدمع

ثم عاد إلى المدينة يشبب بنساء المسلمين ، ويهجو النبي ﷺ وأصحابه .

وقال موسى بن عقبة : وكان كعب بن الأشرف أحد بني النضير أوفيهم قد آذى رسول الله ﷺ بالهجاء ، وركب إلى قريش فاستغواهم ، وقال له أبو سفيان وهو بمكة : أناشدك ، أديننا أحب إلى الله أم دين محمد وأصحابه ، وأيّنا أهدى في رأيك وأقرب إلى الحق : إنا نطعم الجزور الكوماء ونسقى اللبن على الماء ونطعم ما هبّت الشمال . فقال له كعب بن الأشرف : أنتم أهدى منهم سبيلًا . قال : فأنزل الله على رسوله ﷺ ﴿ **ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلًا . أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرًا** ﴾ [النساء : ٥١ ، ٥٢] .

قال موسى ومحمد بن إسحق : وقدم للمدينة يعلن بالعداوة ويحرّض الناس على الحرب ولم يخرج من مكة حتى أجمع أمرهم على قتال رسول الله ﷺ ، وجعل يشبّب بأم الفضل بن الحارث وبغيرها من نساء المسلمين .

قال ابن إسحق : فقال رسول الله ﷺ كما حدثني عبد الله بن المغيث بن أبي بردة : مَنْ لابن الأشرف ؟ فقال له محمد بن مسلمة أخو بني عبد الأشهل :

أنا لك به يا رسول الله، أنا أقتله، قال : فافعل إن قدرت على ذلك ، قال : فرجع محمد بن مسلمة فمكث ثلاثًا لا يأكل ولا يشرب إلا ما يعلق نفسه ، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فدعاه ، فقال له : لم تركت الطعام والشراب ؟ فقال : يا رسول الله، قلت لك قولًا لا أدري هل أفي لك به أم لا. قال : إنما عليك الجهد . قال : يا رسول الله ، إنه لا بد لنا أن نقول ، قال : فقولوا ما بدا لكم فأنتم في حلّ من ذلك . قال : فاجتمع في قتله محمد بن مسلمة ، وسلكان بن سلامة بن وَقْش ، وهو أبو نائلة أحد بني عبد الأشهل . وكان أخا كعب بن الأشرف من الرضاعة ، وعباد بن بشر بن وَقْش أحد بني عبد الأشهل ، والحارث بن أوس بن معاذ أحد بني عبد الأشهل ، وأبو عبس بن جبر أخو بني حارثة ، قال : فقدموا بين أيديهم إلى عدو الله كعب ، سلكان بن سلامة أبا نائلة ، فجاءه فتحدث معه ساعة فتناشدا شعرًا – وكان أبو نائلة يقول الشعر – ثم قال : ويحك يابن الأشرف إني قد جئتك لحاجة أريد ذكرها لك فاكتم عني ، قال : افعل .

قال : كان قدوم هذا الرجل علينا بلاء ، عادتنا العرب ، ورمتنا عن قوس واحدة ، وقطعت عنا السبيل حتى ضاع العيال وجهدت الأنفس ، وأصبحنا قد جهدنا وجُهد عيالنا . فقال كعب : أنا ابن الأشرف ، أما والله لقد كنت أخبرك يا بن سلامة أن الأمر يصير إلى ما أقول ؛ فقال له سلكان : إني قد أردت أن تبيعنا طعامًا ونرهنك ونوثق لك وتحسن في ذلك ، قال : ترهنوني أبناءكم ؟ قال : لقد أردت أن تفضحنا ، إن معي أصحابًا لي على مثل رأيي ، وقد أردت أن آتيك بهم فتبيعهم وتحسن في ذلك ونرهنك من الحلقة ما فيه وفاء ، وأراد سلكان أن لا ينكر السلاح إذا جاءوا بها . فقال : إن في الحلقة لوفاء . قال : فرجع سلكان إلى أصحابه فأخبرهم خبره ، وأمرهم أن يأخذوا السلاح ثم ينطلقوا فيجتمعوا إليه ، فاجتمعوا عند رسول الله ﷺ .

قال ابن إسحق : فحدثني ثور بن زيد ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، قال : مشى معهم رسول الله ﷺ إلى بقيع الغرقد ، ثم وجههم ، وقال :

« انطلقوا على اسم الله ، اللهم أعنهم » ثم رجع رسول الله ﷺ إلى بيته ، وهو في ليلة مقمرة ، فانطلقوا حتى انتهوا إلى حصنه ، فهتف به أبو نائلة وكان حديث عهد بعرس فوثب في ملحفته ، فأخذت امرأته بناحيتها وقالت : أنت امرؤ محارب ، وإن أصحاب الحرب لا ينزلون في هذه الساعة ، قال : إنه أبو نائلة ، لو وجدني نائمًا ما أيقظني . فقالت : والله إني لأعرف في صوته الشر . قال : يقول لها كعب : لو دُعي الفتى لطعنة أجاب ، فنزل فتحدث معهم ساعة وتحدثوا معه ثم قالوا : هل لك يابن الأشرف أن نتماشى إلى شِعْب العجوز فنتحدث به بقيّة ليلتنا هذه ؟ قال : إن شئتم ، فخرجوا فمشوا ساعة . ثم إن أبا نائلة شام يده في فود رأسه ، ثم شم يده ، فقال : ما رأيت كالليلة طيبًا أعطر قط ، ثم مشى ساعة ، ثم عاد لمثلها حتى اطمأن ، ثم مشى ساعة ، ثم عاد لمثلها فأخذ بفودي رأسه ، ثم قال : اضربوا عدو الله !

فاختلفت عليه أسيافهم فلم تغن شيئًا . قال محمد بن مسلمة : فذكرت مغولًا[1] في سيفي فأخذته ، وقد صاح عدو الله صيحة لم يبق حولنا حصن إلا أوقدت عليه نار ، قال فوضعته في ثُنية ، ثم تحاملت عليه حتى بلغت عانته ، فوقع عدو الله وقد أصيب الحارث بن أوس بجرح في رجله أو في رأسه أصابه بعض سيوفنا ، قال : فخرجنا حتى سلكنا على بني أمية بن زيد ، ثم على بني قريظة ، ثم على بُعاث ، حتى أسندنا في حرة العريض وقد أبطأ علينا الحارث بن أوس ونزفه الدم ، فوقفنا له ساعة ثم أتانا يتبع آثارنا . فاحتملناه ، فجئنا به رسول الله ﷺ آخر الليل وهو قائم يصلي ، فسلمنا عليه ، فخرج إلينا ، فأخبرناه بقتل عدّو الله وتفل رسول الله ﷺ على جرح صاحبنا ورجعنا إلى أهلنا ، فأصبحنا وقد خافت يهود بوقعتنا بعدو الله ؛ فليس بها يهودي إلا وهو خائف على نفسه.

وفي ذلك يقول كعب بن مالك :

فغودر منهم كعب صريعًا ... فذلّت بعد مصرعه النضير
على الكفّيْن ثم وقــدْ ... علته بأيدينا مشهرة ذكـور

(١) نصل طويل .

بأمر محمد إذْ دسّ ليلًا   إلى كعب أخا كعب يسيرُ
فماكـره فأنزلـه بمكـرٍ   ومحمود أخو ثقة جسور(١)

أراد جمع الكفار على قتال رسول الله وقتله ونقض العهد ؛ فكان جزاؤه من جنس عمله .

○ بنو النضير – عليهم لعنة الله – ○

قال ابن إسحق : خرج رسول الله ﷺ إلى بني النضير يستعينهم في دية ذينك القتيلين من بني عامر اللذين قتلهما عمرو بن أمية للعهد الذي كان رسول الله ﷺ أعطاهما ، وكان بين بني النضير وبين بني عامر عهد وحلف ، فلما أتاهم ﷺ قالوا : نعم ، نعينك يا أبا القاسم على ما أحببت ، فقالوا إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه – ورسول الله ﷺ إلى جنب جدار من بيوتهم قاعد – فَمَنْ رجل يعلو على هذا البيت ؛ فيلقي عليه صخرة ويريحنا منه ؟ فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب ، فقال : أنا لذلك ، فصعد ليلقي عليه صخرة ، كما قال ، ورسول الله ﷺ في نفر من أصحابه فيهم أبو بكر وعمر وعلي ، فأتى رسول الله الخبر من السماء بما أراد القوم فقام وخرج راجعًا إلى المدينة ، فلما استلبث النبيّ ﷺ أصحابه ، قاموا في طلبه ، فلقوا رجلًا مقبلًا من المدينة ، فسألوه عنه ، فقال : رأيته داخلًا المدينة ، فأقبل أصحاب رسول الله ﷺ حتى انتهوا إليه ، فأخبرهم الخبر بما كانت يهود أرادت من الغدر به . قال الواقدي : فبعث رسول الله ﷺ محمد بن مسلمة يأمرهم بالخروج من جواره وبلده ، فبعث إليهم أهل النفاق ، يثبتونهم ، ويحرضونهم على المقام ، ويعدونهم النصر ؛ فقويت عند ذلك نفوسهم وحمي حيي بن أخطب ، وبعثوا إلى رسول الله أنهم لا يخرجون ، ونابذوه بنقض العهود فعند ذلك أمر الناس بالخروج إليهم .

قال ابن إسحق : فسار حتى نزل بهم فحاصرهم ست ليال . وتحصنوا في الحصون . فأمر رسول الله ﷺ بالشروع في إتلاف وإحراق اللينة ، أردأ

---

(١) البداية والنهاية (٤ / ٦ – ٩) .

أنواع نخيل اليهود الذي لا يقتاتون منه ، وهو نوع يخالف العجوة والبرني الذي كان الغذاء الرئيسي لأهل المدينة ، ولم يكد اليهود الدخان يتصاعد وفروع هذه النخيل تتساقط حتى دخلهم الذعر فنادوا أن يا محمد ، قد كنت تنهى عن الفساد وتعيب من صنعه ، فما بال النخيل وتحريقها ؟! فأنزل الله عز وجل : **﴿ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين﴾** [الحشر : ٥].

ولم يستمر اليهود في المقاومة طويلًا ، فقد خارت قواهم ؛ إذ لم يمض على ضرب الحصار أكثر من عشرين يومًا حتى بعثوا بمندوبهم إلى النبي ﷺ للتفاوض .

وكانت نهاية التفاوض اتفاقية الجلاء . أن يجلو يهود بني النضير عن منطقة يثرب جلاءً تامًّا إلى أي مكان يشاءون .

أن يسلم اليهود للمسلمين كل ما يمتلكون من سلاح بكافة أنواعه ، ويكونوا ساعة جلائهم من يثرب مجردين من السلاح تمامًا .

لليهود أن يحملوا من أموالهم ما يقدرون على حمله ما عدا السلاح ، مهما كانت قيمة أو نوع هذا المال .

بعد الذي يقدر اليهود على حمله من المال ، يكون كل ما تبقى من أموالهم المنقولة وغير المنقولة فيئًا للمسلمين ، وملكًا من أملاكهم .

على القيادة الإسلامية في اليهود أن تضمن ليهود بني النضير سلامة أرواحهم ، ما داموا في داخل المنطقة الخاضعة لسلطان المسلمين .

وحملوا على الإبل ما يقدرون على حمله ، حتى إن أحدهم صار يعمد إلى عتبة باب داره فيخلعها ، ثم يضعها على ظهر البعير فينطلق .

أوقر اليهود ستمائة بعير من الأموال التي قدروا على حملها ، خرجوا وكلهم رعب وغيظ يقول سلّام بن أبي الحقيق ، وقد حمل معه جلد ثور مملوء ذهبًا ، فكان يضرب بيده على هذا الجلد ويقول : هذا الذي أعددناه لرفع الأرض وخفضها ، وإن كنا تركنا نخلًا ، ففي خيبر النخل .

وكان اليهود يعمدون – عند مغادرتهم المدينة – إلى سُقُفِ بيوتهم وعُمُدها وجدرانها فينقضونها ؛ لئلا يستفيد منها المسلمون .

يقول الله تعالى : ﴿ **هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولى الأبصار** ﴾ [الحشر : ٢] .

هذه سنة الله في إذلال المفسدين وقهرهم . فهؤلاء اليهود الذين غدروا وتحصنوا بحصونهم ، ولشدة بأسهم ومنعتهم وشدة حصونهم وفرط وثوقهم بها ، اعتقدوا في أنفسهم أنهم في عزة ومنعة ، لا يبالون بأحد يطمع في منازعتهم فقذف الله في قلوبهم الرعب، فجعلهم ﴿**يُخْرِبُون**﴾، أو كما قرأ أبو عمرو (يُخَرِّبُون) بيوتهم ، حسدوا المسلمين أن يسكنوا مساكنهم ومنازلهم ، فجعلوا يخربونها من داخل والمسلمون من خارج .

نقضوا بيوتهم كالحصون على أبواب الأزقة .

بداية غرتهم منعة الحصون حتى نسوا قوة الله التي لا تردها الحصون ! فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا ، أتاهم من داخل أنفسهم ، لا من داخل حصونهم . أتاهم من قلوبهم ؛ فقذف فيها الرعب ، ففتحوا حصونهم بأيديهم وأراهم أنهم لا يملكون ذواتهم ، ولا يحكمون قلوبهم ، ولا يمتنعون على الله بإرادتهم وتصميمهم ، فضلًا على أن يمتنعوا عليه ببنيانه وحصونه .

لقد امتنعوا بدورهم وبيوتهم ، فسلطهم الله على هذه الدور والبيوت ؛ يخربونها بأيديهم ، ويمكنون المؤمنين من خرابها ، والجزاء من جنس العمل .

ليقف المشاقون لله ولرسوله ، المخاليق الضئيلة الهزيلة تقف في وجه الخالق يشاقونه . هل بعد هذا تبجح قبيح والله شديد العقاب ؟!

أما الذي أراد رمى الحجر :

فقد ذكر ابن إسحق : أن رسول الله ﷺ قال لليهودي الذي أسلم – يامين : ألم ترى ما لقيت من ابن عمك وما هم به من شأني !؟ فجعل يامين لرجل جعلًا على أن يقتل عمرو بن جحاش ، فقتله ، لعنه الله . والجزاء من جنس العمل .

لقد خزيت بغدرتها الحبور　　كذاك الدهر ذو صرْف يدورُ

مشردونَ أبدًا ..
وتائهون أبدًا ..
مهما طلبْتُمْ لخطاكمْ سَكَنَا
مهما نَهبتُمْ في سُراكمْ وطنَا
فالأرض تحت رِجْسكم دَمارُ
وصمت قبر ، همسه جبارُ
وحين ينقضُّ لديه الثَّارُ
ستصبحون بددًا
محيَّرون أبدا
وضائعون أبدا

* * *

مشرودن أبدا
وتائهون أبدا
ولعنة الأكوان تَجري في خُطاكم سَرْمدا..
ملَء الدروب ، والغيوب ، باغتتكم رصدًا
ينسَلُّ من أوزاركم ، من كل أُفْق أو صدَى
شبَّتْ سَدُومُ من حشاكم نارَهُ
وجرَّعتْكُمْ قبل « موسَى » عارَهُ
وفرَّقتكُمْ كي تذوقوا ثارَهُ ..
.. في ظلُماتٍ أنكرتْ من غيظها وجودكَم
وأنْشبَت في الريح من أصفادها قيودكمْ
تقذفكم بوَيْلها ، وليلها الضَّرير
في القلق المنبوذ تحت ضيعة المصير
في آهة مصلوبة على صدَى ..

وصوت ذل مستطيرٍ ردَّدا ..
مشتَّتونَ أبدا
مُفَتَّتون أبَدا

* * *

مشردون أبدا .. وأبدًا مشردين !
مضيَّعون أبدا وسرمَدًا مضَيَّعينْ !
بكل نور شَعّ للإنسان كنتم جاحدينْ
لكل إلهامٍ من السماءِ ، رحتم مفسدين
لكل دين أرسل الله ، ذهبتم منكرين
عن كل شرع من نبي جاءَ ، قمتم مُعْرضين
وكلُّ هادٍ مرَّ بالدنيا ، وقفتم ناقمين ..
« موسى » يناجي الله فوق سينا ،
وأنتم للعِجل ساجدينا ،
محيَّرين التّيهَ أربعينا ..
حتى مُسخْتُم فيه أجمعينا !
وحين جاءَ خاتَمُ الهُداةِ
من النبيين إلى الحياة ،
بذرتُمُ السُّمَّ على الراحات
وكنتم مزاحفَ الحياتِ
لمن سرى للنور في الآياتِ
فعاودتكمُ لعنة اللَّعْناتِ
وعدتم للتيه والشتاتِ ..
لا تبصرون في الضلال أحدًا
ولو تَخذتُمْ كل إفك سنَدَا ..
الكون في طريقكم تبدَّدَا

والناس صاروا لعَنَاتٍ وعِدَا!
ممزّقون .. أبدا
مطاردون .. أبدا

* * *

مشردون أبدا
وتائهون أبدا
وفي يديكم لم يزل دم السماءِ ينزف الخطيئهْ
على تراب لم تزل أقداسه رغم الدجى مضيئه
مشى عليه عاركم بخطوةٍ أفّاقة دنيئه
متاهةً ، دُنِّس طهرُ الكون من أرجاسها الخبيئَهْ
حطَّتْ بكم خيانةٌ ستحصدون ويْلها
ونوْبة للتيه ، يومًا تشربون ذُلّها ..
وتعبرُون دربَكُمْ على نعوش « بابل » ...
منذُ مراثي الذل تُشجي وخَزَة السَّلاسل
وأنتُم في كل أرض سيرة القلاقلِ
والغدر ، والضياع والشّرور ، والمباذِلِ ..
على سماءِ المسجد الأقصى وفي محرابه
لتدفن اللصوص في غياهب الردَى
فيرجعون للمدَى
مشتّتين أبدا
مضيَّعين أبدا

* * *

مشرَّدُون أبدا
وتائهون أبدا

مهما استجاروا .. فالمجيرُ لعنة الأقدار
ولعنة الشعوب من سُراهم الغدارِ
ولعنة السماءِ في العشي والإبكارِ
ولعنة الذل .. رمتها قبضة الأحرار
.. يوم يدق الهول باب تائهٍ مشردٍ مخْذُولْ
وتصبح الزنود كالرياح فوق تيه « إسرائيل »
تزفُّها للتيه من جديد
ملعونةً في خطوها الشريدِ
وراية النصر بكفِّ الثائِر
تحدو ضُحاها عزمات الصابر
تشدو .. وتشدو أبدا
مشردون أبدا
وتائهون أبدا(١)

* * *

(١) قيامة الثأر : لمحمود حسن إسماعيل .